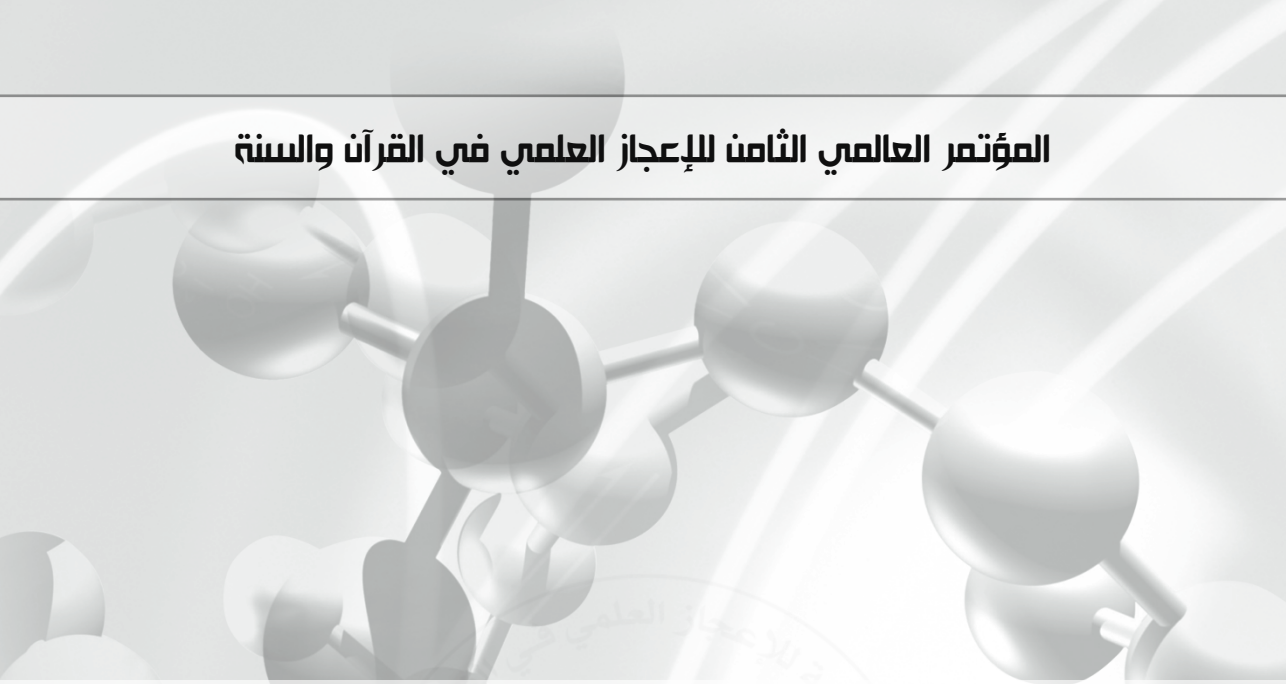

الإعجاز العلمي في قول الله تعالى (وعلّم آدم الأسماء كلَّها)

أ.د. ظافر بن علي القرني

أستاذ علوم هندسة المساحة

جامعة الملك سعود – كليّة الهندسة –القسم المدني

الملخّص

تقدّمت العلوم والمعارف اليوم تقدّمًا عظيمًا بعد قرونٍ متطاولة من البناء المعرفي المتواصل إلى أن أصبحت معلوماتها تعالج آليًّا في هيئة رقميّة. وعُرف عن هذه المعلومات أنّها ذات شقين: كمّي ونوعي. وقد انصرف المهتمّون بالتّقنية إلى معالجة المعلومات الكميّة المعتمدة على الأعداد، بعد أن ساعدتهم آلة الحاسوب على ذلك؛ وأغفلوا، إلى حدٍّ بعيد، المعالجة الآليّة للمعلومات النّوعيّة المعتمدة على الكلمات، لصعوبتها، ولكون الآلة لم تيسّر لهم ذلك أول الأمر. إذن، في الوقت الذي كانت تعالج المعلومات الكمّيّة بطريقة آليّة أو شبه آليّة، كانت المعلومات النّوعيّة تعالج بطريقة غير آليّة، أي بواسطة الإنسان نفسه، ثمّ يُجمع نتاج نوعي المعلومات في محصّلة واحدة، بحسب التّخصّص، لتستخدم في أغراضها المختلفة. ولمّا زادت رغبة الإنسان في جعل الآلة تقوم مقامه في أعماله كلّها دون أيّ تدخّلٍ منه، أيقن بأهميّة معالجة المعلومات النّوعيّة آليًّا، فشرع في جعل الآلة تتعامل معها تعاملها مع الكمّيّة منها. وهنا ظهرت مكانة الأسماء (العقبة الكؤود في معالجة المعلومات)، لعجز الإنسان أن يأتي بها متمايزة، دون لبس، لتتمكّن الآلة بعد تغذيتها بها من معالجتها ذاتيًّا، والوصول إلى النّتيجة المرجوّة دون خطأ. قادت هذه الحقيقة إلى النّظر في قول الله تعالى: (وعلّم آدم الأسماء كلّها)، وقول الرّسول الأمين: (بعثت بجوامع الكلم)، فتبيّن للباحث الإعجاز العلميّ العظيم في هذين النّصين العظيمين، فأثبته؛ وبيّنَ بالدّليل أن لفظ اسم لم يتداول في اللّغة العربيّة بشكلٍ ظاهرٍ مبين إلاّ بعد نزول القرآن الكريم على محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسّلام. فمن الّذي علّم النّبي الأميّ، في الأمّة الأميّة أن معضلة العلم ستكون في الأسماء وستظلّ، لينصّ عليها في القرآن الكريم؟ وما البعد الإعجازي في إخباره النّاس أنّه: أوتي جوامع الكلم؟. هذان سؤلان مهمّان يجيب عليهما البحث، ويدعو الباحثين المنصفين إلى إعادة النّظر في تصنيف العلم، وتعليمه، لتنهض الأمّة الإسلاميّة على هدى من أمر ربّها ورشاد.

المقدمة

العقل البشري مهيأ للعلم من خالقه عزّ وجلّ؛ لذا فتعلّم العلم هو من أيسر الأمور على الإنسان؛ ولمّا وهمنا أن غيرنا أجدر به منّا، تصورناه أمرًا صعبًا، فحاولنا ابتكار تعاريف تليق بهذه الصعوبة المتوهمة. وكانت أسهل طريقة لجلب هذه التّعاريف أن تؤخذ ممّن بُهرنا بثقافتها من الأمم المتقدّمة تقنيًّا، فقادتنا تلك التّعاريف إلى تقسيمات عشوائية أكثرها غير رشيد؛ حتّى بلغ بنا الأمر أن قسّمنا العلم، في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، إلى علم وأدب (Science and Art)، أو علم وغير علم (١)؛ ولأنّ هذا لا يتّسق مع واقع العلم، ولا مع ثقافة أمتنا، لما بين يديها من علوم ومعارف لا تخضع لهذا التقسيم الفاسد، لم يقم لها قائمة منذ أمدٍ بعيد.

وقد يحجر المرء العلم على ما يعرفه منه، وينفي صفته عن علوم أخرى لجهله بها. وهذا أمر أفدح من سابقه؛ لأنّ العلم لا يحيط به أحد، ليبعد عنه ما شاء، ويدني منه ما شاء؛ وإن كان علمٌ دون علمٍ في الأهمّية؛ فمن العلم

ما لا يسع المرء جهله، أو ما هو فرض عين على النّاس. ولو حكمنا معارفنا بما دلّ عليه كلام الرّسول الكريم في العلم، لكفانا مؤونة التقسيم التي لا تنتهي متاهتها؛ ألم يقل صلى الله عليه وسلّم في دعائه: "اللّهم إنّي أعوذ بك ... من علم لا ينفع" (٢، سنن التّرمذي، حـ ٣٤٠٤). إذن العلم إمّا أن يكون نافعًا أو ضارًا. وهذا هو ما نراه في واقع الحياة. ونحن لا نعجب ممّن لم يعرف عن الوحي شيئًا إذا أخطأ في فهم كنه العلوم وتصنيفها؛ ولكن العجب يتملّكنا ممّن وفقه الله لمعرفة كتابه، ثمّ يسلك في تعريف العلم ما سلكه غيره، دون معرفة حقّة به. ولنكتف بدليل واحد من القرآن الكريم لنرى السّياق الذي جاءت فيه كلمة علماء في قول الله جلّ في علاه:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (٣، فاطر، ٢٧-٢٨).

فالآية تخبرنا عن أنواع من العلوم لها اليوم تخصصاتها التي تُعرف بها، فإذا ما اتّقى أصحابها الله في علمهم، وكان خالصًا لوجهه، كانوا من العلماء الّذين ذكرتهم الآية. فأيّما معرفة تقود إلى عبادة الخالق عزّ في علاه، على ما شرعه، فهي علم وأهلها علماء بها، وقد لا يتجاوزنها لغيرها.

ورغم ما يشوب كثيرًا من علوم اليوم من خلل في الفهم والتّصنيف، فقد بلغت مبلغًا عظيمًا يعكسه لنا التّطور التّقني المشهود في كلّ بقاع الأرض. وإذا ما نظر المرء إلى المعطيات أو المعلومات التي تقوم عليها هذه العلوم والتّقنيات المتنوّعة، وجدها تنقسم إلى نوعين مهمّين هما: المعلومات الكمّيّة (Quantitative)، والمعلومات النّوعيّة (Qualitative). والكمّيّة منها تقوم على العدد، والنّوعيّة تقوم على الحرف (الكلمة). وجلّ العلوم والتقنيات المسيطرة اليوم، تتّخذ من الأعداد المعالجة بالحاسوب، وسيلة للوصول إلى نتائج علميّة قد يكون غيرها أصح منها؛ ولكنّها هي أفضل ما يمكن الوصول إليه، بحسب النّماذج الرّياضية المبتدعة فيها. ورغم الأهميّة البالغة للإعداد، فإنّها لا تأتينا بكلّ المعلومات، ولا تفي بالغرض الذي نريده، ولا تمكّنا من جعل الآلة تتعرّف على كلا النّوعين من المعلومات المتعلّقة بالشيء المعالج بذاتها. ولذا أصبح من الضروري النّظر فيما يعوز هذه التقنيات من مكونات كي تفي بما يراد منها، بحسب المجالات المختلفة. وبما أنّ البحث قد بلغ مبالغ عظيمة في الصنف الكمّي، وقصر في الصّنف النّوعي من المعلومات؛ فلا بدّ للمرء من البحث في كلا الصّنفين بطرق علميّة، ليرى مكمن العجز، فيحدّده ويبيّنه، كي تصبح معالجته ممكنة ميسّرة.

سيبدأ البحث بمناقشة علوم وتقنيات حديثة مختارة، تشمل تقنيّة التّصوير المتري: المساحة التّصويريّة، والاستشعار عن بعد (Photogrammetry & Remote Sensing)، ونظم المعلومات الجغرافيّة (Geographic Information System. GIS)، وتقنية النّانو (Nanotechnology)، والإنترنت (Internet)؛ ليبرهن أنّ العقبة الكؤود في سبيل هذه العلوم والتّقنيات، وما ماثلها، تكمن في المعلومات النّوعيّة،

وتتمحور في اسم الشيء المعالج أو المراد معرفته. فيركّز البحث، بعد ذلك، على الاسم، ليرُى ما جاء فيه، وليرصد أهم التّحولات الحادثة عليه عبر عصور تأريخيّة محدّدة، هي: العصر الجاهلي، والعصر النّبوي، والعصر الأموي، والعصر العبّاسي. ولا يغيب عن القارئ الفطن أن الأرض بأممها كانت هامدة قبل بعثة الرَّسول، وكانت في ظلام دامس، وفقر مدقع في العلم والمعرفة؛ فلاختيار هذه العصور ما يبرره بشهادة أمم الأرض عامة، كونها تمثّل الحضارة الإنسانيّة على الأرض آنذاك. ولا ريب أنَّ لها تأثيرها البيّن فيما بعدها من عصور إلى يومنا هذا. وستقود هذه الدّراسة، بطبيعة الحال، إلى أمر الإعجاز العلمي في القرآن، والسّنة النّبويّة ليتوّج به البحث، وليجيب على مقالة من قال إنّ القرآن جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم من عنده، أو إنَّه من عند غير الله تعالى؛ فكيف لهذا النّبي الأمّي، في هذه الأمّة الأمّيّة أن يعلم أهمّيّة الأسماء وأنّ معضلة العلم والتّطوّر العلمي ستكون فيها لينصّ عليها بعينها في القرآن الكريم في آية (وعلّم آدم الأسماء كلّها) (٣، البقرة، ٣١). وكيف علم هذا النّبيّ الكريم أنّ معضلة ما سيُسمّى "العلوم البحتة"، في آخر الزّمان، ستكون في "جوامع الكلم" ليخبرنا أنَّها معجزته الباقية أبد الدّهر؟. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ كثيرًا من معلومات هذا البحث، مستقاة من كتاب أسماء الأشياء والعلم والتّقنية: الإعجاز العلمي العظيم" (٤)، الّذي وفّق الله الباحث، بفضله وكرمه، إلى إنجازه.

عقبة العلم الكؤود

أ. علومٌ وتقنياتٌ مختارة

سيركّز البحث هنا على بعض العلوم والتقنيات الحديثة التي تغني عمَّا سواها فيما وصل إليه العلم من تطوّر ورقيّ تقني. وهذه تشمل علم التصوير المتري، وعلم نظم المعلومات الجغرافيّة، وتقنية النَّانو، وتقنية الإنترنت. سيُنظر في أهم خصائص هذه الحقول المعرفيّة، وأهمّ مقوماتها، وما يعوزها من هذه المقومات.

www.eajaz.org

١. علم التصوير المتري

يشمل ما أسميته علم التصوير المتري علم المساحة التّصويريّة والاستشعار عن بعد. وهما علمان يقومان على تصوير الأشياء على الأرض، أو حولها، من آلات تصوير مثبَّتة على حوامل أرضيّة، أو على الطائرات، أو على منصّات فضائية (أقمار صناعيّة)، من أجل استنتاج معلومات تستخدم في تحديد موقع الشيء وماهيته؛ وليستنتج منها خرائط طبوغرافية أو غير طبوغرافيّة تستخدم لأغراضها المختلفة. وفكرة الصورة التي تلتقط من مسافة متر أو أقل، هي نفسها فكرة الصورة التي تُلتقط من مسافة مئات الكيلومترات. أقول هذا لأنَّ التَّقنية تُمكّننا اليوم من جعل الصُّور جميعها في هيئة واحدة هي الهيئة الرَّقمية، مهما اختلفت مصادرها، وطرق تصويرها (٥).

وأينما قرأ المرء عن هذا الفرع من المعرفة، سيجد أنَّه يهتمّ بنوعين من المعلومات: كمِّية (Quantitative)، ونوعيّة (Qualitative). وأهم عناصر المعلومات الكمّية هي موقع الشيء؛ وأهمّ عناصر المعلومات النَّوعيّة هي اسمه الذي يُعرّف به. والموقع سهل تحديده كونه يحدَّد بمعرفة الإحداثيات الهندسيّة للشيء. وهناك طرق مختلفة لحساب هذه الإحدثيات لا تحتاج إلى جهد كبير من الإنسان؛ إذ الآلة تكاد تقوم بهذه المهمة كاملة (٦، ٧). ولذا انصبّ جهد المعنيين بتطوير هذا العلم، إلى ما قبل عقود قليلة من الزّمن، على كيفية استنتاج الكميات الحسابيّة من الصُّور الملتقطة من آلات تصوير أرضيّة أو من الطائرات، مع الالتفات إلى تحديد ماهيّة الشيء بأساليب تعتمد على رؤية الإنسان، وفهمه دون توظيفٍ عميق للآلة.

ولمَّا تطوّرت تقنيات الحاسوب، وتحسّنت تقنية الاستشعار من بعد المتميّزة بكثرة أطيافها وتنوعها، منذ أوائل السبعينيات، بدأ الإنسان يفكّر في جعل الآلة تحدّد له موقع الشيء وماهيّته آليًّا دون أدنى تدخّل منه. بعد هذا التَّوجّه الذي دفعتنا إليه التَّقنيّة، برزت أهمّية المعلومات النّوعيّة، ولمسنا صعوبة التّعامل معها آليًّا؛ لأنَّه لا بدّ من معرفة اسم الشيء، لنغذّي الآلة به، فترجعه لنا متى ما حدَّدت أنّ الشيء الذي تتحسّسه في الصّورة هو مسّمى ذلك الاسم. هنا ظهر لنا العجز الكبير في تسمية الأشياء بأسماءٍ تُمايزها عن بعضها، ويكون الإتفاق عليها من قبل كلّ المعنيين بأمرها.

وهذا ليلساند وكيفير، مثلاً، يقولان عن تقنية تفسير الصّور (Image Interpretation)، أهم تقنيات الاستشعار عن بعد، إنَّها: "تعتمد على مفتاحين أساسيين: أوّلهما: ما معناه ظهور الشيء في صورة مصححة، وثانيهما: وجود أشكال توضيحية أو كلمات وصفيَّة تبينَّ خواص هذه الأشياء أو حالاتها (٨، ص ١٩٥). ولو أحسنا لقالا: وجود أسماء وليس مجرد كلمات ولا أشكال، لتعرف بها هذه الأشياء المفسّرة؛ إذ لا يعرف الشيء إلاَّ باسمه حتَّى لو وُصِف أو رمز له برمز، فهو ما يُوصف ولا يرمز له إلاَّ ليسمَّى في نهاية المطاف. ولينظر المرء إلى العناصر التي يبحث عنها في الشيء المراد معرفته من حيث شكله، وحجمه، ونمطه، ولونه، ونسيجه، وظلّه، وما حوله، وغيرها؛ أليست كلّ هذه العناصر لتيسِّر لنا تعريف هذا الشيء باسمه فينتهي الإشكال.

ولو عدنا إلى نظام تصنيف هيئة المساحة الجيولوجيّة الأمريكيّة (USGS Classification System)، وتفحّصنا جداوله (٨، ص(٢١٠-٢١١، لوجدنا أن ما يُبحث عنه هو اسم الشيء المراد معرفته، ولظهر العجز في تسمية الأشياء بأسمائها من وجهين، الأول: الاكتفاء بوصف ما لم يُعرف اسمه بوصف عام. والثاني: الاكتفاء بكتابة آخر (Other) في نهاية عددٍ من الأصناف، لتكون اسمًا أو وصفًا لما لم يعرف من الأشياء الظّاهرة في الصورة.

يظهر، إذن، أنّ مكمن العجز في معالجة الصور بأنواعها بصريًا أو آليًّا هو في معرفة اسم الشيء في الواقع، والاتفاق عليه من قبل المعنيين، وكون هذا الاسم لا يلتبس مع غيره من أسماء الأشياء الأخرى، ولا يهمّ وقتها نوع

التقنية التي تقرِّب هذا الواقع للإنسان أكانت صورة أم شاشة جهاز أم خريطة.

٢. نظم المعلومات الجغرافيّة

جاءت نظم المعلومات الجغرافية في النِّصف الثَّاني من الثَّمانينيات الميلادية المنصرمة، موظِّفةً معطيات التّصوير المتري، والتقنيات المساحيّة الأخرى، والحاسوبيّة، والجغرافيّة، وغيرها في نسقٍ تكامليٍّ متين ينتج خرائط ذات معلومات أثرى وأجدى للفهم والتّحليل. وقد اعتاد أصحاب هذه التقنية الجديدة أن يقسِّموا معلوماتها المدخلة إليها إلى قسمين رئيسين: الشيء نفسه الذي يمكننا تحديد شكله وموقعه آليًّا، ومعلوماته الملحقة به، أو صفاته الّتي تُعرِّفه ليمكننا الاستفادة من مخرجات هذه النُّظم. ولهم في هذه أسماء كثيرة أظهرها (Spatial and Non-spatial Information) التي يترجمها أغلب المهتمّين إلى مكانيّة وغير مكانيّة، أو مكانيّة ووصفيّة. وهذان النّوعان من المعطيات هما الكمّيّة والنّوعيّة اللّذان أشرنا إليهما في التّصوير المتري.

والواقع كما هو الحال في التَّصوير المتري، أنَّ معالجة الجزء الكمِّيّ من المعلومات -ذات الطّابع العددي - بواسطة الآلة سهلٌ إلى حدٍّ بعيد، ويكاد أن يصبح آليًّا كلّه؛ وهو صعب على الإنسان لعدم مقدرته على معالجة الأعداد بنفس كفاءة الآلة. أمَّا الجزء النَّوعيّ من تلك المعلومات -ذات الطابع الوصفي(الحرفي)- فمعالجتها من قبل الآلة صعبٌ جدًا، كونها لا تعي ما يعيه الإنسان من معرفة، وهو سهل على الإنسان إذا سبقت له رؤية الأشياء التي يريد معرفتها، وألِف أسماءها، وهذه الفكرة ملخّصة في جدول (١) التَّالي.

جدول (١): الآلة مقارنةً بالإنسان في معالجة نوعي المعلومات في النُّظم الجغرافية

	Man الإنسان	Machine الآلة
Quantitative كمِّيّة	Difficult صعب	Easy سهل
Qualitative نوعيّة	Easy سهل	Difficult صعب

ولا ريب أن ضعف الآلة يظهر عندما نحاول معالجة نوعي المعلومات في نسق آليٍّ واحد، وليس في نسقين منفصلين كما هي الحال في تقنيات اليوم. ولقد كان التّركيز وما زال، إلى حدٍّ كبير، منحصرًا على المعلومات الكمِّيّة (ذات الأعداد) معالجةً ونمذجةً وتعليمًا، بينما أُهملت المعلومات النَّوعيّة (ذات الحروف) إهمالاً شبه تامٍّ للصَّعوبة التي تكتنفها (٤). ونظرًا لكثافة البحث والتعليم في الجزء الكمِّي (العددي) من المعلومات، فقد تطوَّرت تقنيات جمع المعلومات، وزادت دقّتها، وتحسَّنت دورة التقاطها الزَّمنية على أي موقع في الأرض، كما يوضح ذلك جدول

(٢)؛ فما عادت الدِّقة التَّمييزية ٨٠ مترًا كما في MSS، بل أصبحت تقارب نصف المتر (٠,٦٠ م) كما في QuickBird. وما عاد ينتظر المستخدم لأسبوعين أو أكثر للحصول على أي صورة، بل يمكنه الحصول عليها في يوم واحد، وقل مثل ذلك عن عدد ألوان الصور، وعن درجات اللَّون التي يمكن أن تعرض بها. كلَّ هذه التَّطورات حدثت وتحدث فيما قوامه العدد من المعلومات. أما المعلومات الَّتي قوامها الحرف أو الكلمة فلا نجد لها أي دقة تمييزيّة خاصة رغم وجود أربع للمعلومات ذات الطابع العددي. من أجل ذلك، اقترح الباحث أن نهتمَّ بالجانب اللّغوي في نظم المعلومات الجغرافيّة (٦)، وأن ندخل ما يمكن أن نسمِّيه "التّمييز اللّغوي" (Lingual Resolution) (٧)، ليضاف إلى سوابقه في الجانب العددي من المعلومات. وتظلّ المعالجة الآلية لتحديد هيئة الشيء وموقعه سهلة التَطوير؛ أمَّا نظيرتها لتحديد ماهيَّته، فيظلّ التَّقدّم فيه بطيئًا، رغم ما أنجز. وهذا هو مكمن الصعوبة في هذه التّقنية؛ إذ الإنسان لا يحيط علمًا بمعرفة الأشياء في الطبيعة، لقصوره المجبول عليه؛ فكيف له أن ينقل من المعرفة ما يكفي الآلة لتكفيه مؤونة هذه المهمة المعقَّدة التي هو أفضل من يجيدها.

جدول (٢): تحسُّن الدِّقة التمييزيّة: المكانيّة، والزَّمنيّة، والإشعاعيّة، والطّيفيّة، لبعض اللواقط المشهورة

Coverage (km^2) التغطية	Spectral Resolution التّمييز الطّيفي	Radiometric Resolution التمييز الاشعاعي	Temporal Resolution التمييز الزّمني	Spatial Resolution التمييز المكاني	Satellite نوع القمر
185x185	4	$2^8 = 256$	16- days	80 m	MSS
185x185	7	$2^8 = 256$	16	30	TM
141x141 C 70x70 B/W	3 color 1 B/W	$2^8 = 256$	24 12	23.5 5.8	IRS-ID
60x60	4 color 1 B /W	$2^8 = 256$	26	10 2.5	SPOT
11x11	4 color 1 B/W	$2^{11} = 2028$	1.5	4 1	IKONOS
16.5x16.5	4 color 1 B/W	$2^{11} = 2028$	1-3.5	2.44 0.60	QuickBird

إن ضعف الاهتمام بالجانب النّوعي من المعلومات لصعوبته أخَّر التَّطوير الآلي لعتاده وبرامجه، بل جعل الجهود فيه مبعثرة، والأدلّة على هذا كثيرة؛ منها إن الشيء الذي يراد معرفة موقعه وماهيته يُسمَّى بأسماء مختلفة في تخصصات متقاربة يعرف بعضها بعضًا معرفةً جيدةً. ففي الاستشعار عن بعد، يُسمّى الشيء بظاهرة ، وصنف، ونوع، وهدف؛ وفي الرؤية الحاسوبية يسمّى فكرة أو مفهومًا أو فرضيّة، وفي المساحة التصويرية الرّقميّة يدعى كائنًا، أو هدفًا، وفي المساحة الأرضيّة والعسكريّة يدعى هدفًا (٤). فليس هناك اتفاق على تسمية هذا الشيء المبحوث عنه؛ بل كلٌّ يرى تسميته هي الأصح والأقرب إلى الواقع. وإذا ما أتينا إلى أسماء صنفيّ المعلومات

المتعلقة بالشيء ذاته من كمِّيّة ونوعيّة، وجدناها أكثر تعدُّدًا من سابقتها كما يوضح ذلك جدول (٣).

وقد يقول قائل لا بأس من كثرة الأسماء فهي مزيَّة يُحرص عليها، وقد تحلُّ إشكالات كثيرة في المعرفة. فيُقال له: هذا صحيح لو كانت هذه الأسماء مفهومة لكلٍّ من يتعاطون هذه العلوم؛ أمَّا أن يدري ببعضها قوم ولا يدري آخرون عن بعضها فهذا عيبٌ ظاهرٌ، وعبء ثقيل.

جدول(٣): أسماء معلومات الشيء الكمِّيّة (العدديّة) والنّوعيّة (اللُّغوية).

شيء Thing	
Names of Numerical Information	Names of Lingual Information
Spatial مكانية	Non-spatial غير مكانية
Quantitative كمِّية	Qualitative نوعية
Locational موقعية	Non-locational غير موقعية
Graphical رسوم	Non-graphical غير رسومية
Geographical جغرافيّة	Non-geographical غير جغرافيّة
Class صنف	Attribute صفة أو خاصيّة
Feature ظاهرة	Textual نصيّة
Objectشيء	Descriptive وصفية
Target هدف	Nominal اسمية
Concept فكرة	Footprint أثرأو طبعة
Entity كائن	Metadata توضيحية
Hypothesis فرضيّة	Semantic دلالية
Theme موضوع	Aspatial غير مكانية

ولقد درس الباحث كلَّ نظم قواعد البيانات من هرميَّة (Hierarchal)، وشبكيَّة (Networking)، وعلائقية (Relational)، وشيئية (Object-Oriented) فوجد أنَّها تقوم أول ما تقوم على اسم الشيء الذي يراد ربط صفاته بشكله أو بجسمه أو بجِرمه؛ ولكن لعجزنا عن معالجة الاسم مع الجسم نلجأ إلى تعريف الجسم برقم نسمِّيه ID، الحرفان الأولان من كلمة Identification التي تعني تعريف الشيء أو تحديده. فسرنا بهذا نسعى للتعرُّف على الاسم الَّذي هو المُعرِّف الأول للشيء، برقم مجهول لا يوحي بأي معنًى، ولا يَسهُل الاتِّفاق أو التَّواطؤ عليه؛ كما أنَّه قد يطول جدًا خاصة إذا كثرت الأشياء التي نريد أن نمثلها به فيصبح صعبًا في القراءة، وفي الكتابة، وفي المعالجة،وفي الفهم، وفي كلِّ شيء، كما هو الحال مع هذا المعرّف للأهداف في الخرائط

التّفصيلية الألمانيّة HA034030900012840021 الذي يُدعى اسم الهدف (Object-name) (٩)، ولا تختلف عنه في الطول معرّفات البلدان الأخرى في نظمها الخرائطيّة. ولنأخذ مثالاً واحدًا من قاعدة معلومات علائقيّة (٨)، لنرى في جدول (٤) أن القيم التي تشغل العمود الأول هي قيم الـ ID التي تعتبر المؤشّر الأول إلى ماهيّة الشيء الذي نريد رصده ومعرفته. وعلى الرَّغم من قصر أرقام الـ ID في هذا الجدول، فإنَّها لا زالت غير معبرة بالنِّسبة للإنسان، ولا يستطيع أن يفهم منها أيّ شيء، وقد تطول مع كثرة الشوارع المرصودة.

جدول (٤): جزء من قاعدة بيانات علائقية لشوارع محدّدة

ID Number المُعرِّف	Street Name اسم الشارع	Lanes المسارات	Parking المواقف	Repair Date تاريخ الصيانة
143897834	Maple Ct	2	Yes	1982/06/10
637292842	North St	2	Seasonal	1986/08/22
347348279	Main St	4	Yes	1995/05/15
234538020	Madison Ave	4	No	1989/04/20

وهنا أمرٌ جديرٌ بالإنتباه وهو كون شكل الشيء المراد معرفته يُحوَّل إلى أرقام في الآلة، وكذلك الكلمات التي تصف الشيء تحوَّل إلى صيغة رقمية، فتتعادل الأعداد والحروف في طريقة المعالجة. وهذا يبطل حجة سهولة التعامل مع الأعداد دون الكلمات كونها أصبحت كلها أرقامًا، ويظهر لنا مدى التَّحدي العظيم المتمثِّل في عجز الإنسان أن يأتي بمعلومات غير عددية (أسماء) تصف حال الشيء أحسن ما يمكن، وتُحوَّل بواسطة الآلة إلى هيئة رقمية مصاحبة لشكل الشيء فتغنينا عن الأرقام العدديّة (ID) غير المبينة، التي هي أقرب من غيرها إلى الإبهام والتَّعقيد. إن توظيف المُعرِّف (ID) لا يعدو عندي كونه تحائلاً على موقفٍ صعبٍ جدًّا لا سبيل إلى تجاوزه.

ومن دلائل العجز في تسمية الأشياء بأسمائها ما وُضّح في مثالٍ استشهد به من قبل (٦)، حيث ترد الأسماء في أعمال الباحثين مكوّنة من ثلاث كلمات أو أكثر، تكتب متّصلةً دون فراغات لتنوب عن اسم الشيء المراد تسميته كـ (RealEstateObject. NaturalTransportationLink). يكفي هذا المثال دليلاً على العجز الظاهر عن أن يأتي المرء بأسماء مختصرة تسهُل قراءتها، وكتابتها، ومعالجتها، ولا تكون مبهمةً، ولا تشغل حيزًا من الفراغ لا لازم لشغله بها.

يُفهم من هذه الإشارات السّريعة المختصرة في نظم المعلومات الجغرافية، أنَّه كلما تنامت العمليّات الحسابيّة وتعاظمت، وزادت مقدرة التَّكيّف مع أنماط المعلومات المختلفة، ظهر مكمن القصور في التَّقنيّة؛ فلا الأشياء التي تتساقط في رحاب قواعد نظم المعلومات الجغرافيَّة معرَّفة تعريفًا جيِّدًا للإنسان، ولا هو بقادر على أن يحيط بها علمًا؛ فكيف سيكون حال الآلة التي هو صانعها ومغذّيها بالمعلومات المنقوصة فطرة؛ هل ستستطيع أن تمايز بين الأشياء بأسمائها التي لم يتمكّن هو من الممايزة بينها؛ رغم ما للعقل البشري، في هذا الشأن، من مقدرة هائلة لا تضاهيها في الأرض مقدرة أخرى؟

٣. تقنية النَّانو (Nanotechnology)

تقنية النَّانو تقنية حديثة (٢٠٠٣م)، تستقطب أهواء العلماء من كلِّ المجالات العلميّة المختلفة، ويرى كثيرٌ من العلماء أنّها تقنية المستقبل، فالوقوف عندها يغني عن غيرها في بحثنا هذا خاصّة عن نظرية الكم (Quantum Theory) التي هي مجالٌ خصب لما نحن فيه من بحث كما يشير اسمها. يقول أحد المهتمين بتقنيّة النَّانو في كلام نأتي بمعناه: "إنَّها تقنية استثارة الأشياء، والتَّحكم فيها في أدنى مستويات صغرها التي نستطيعها. وأدنى مستوّيات الصِّغر هذه تُسمَّى النَّانو وهو جزء (١) من بليون جزء (١،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠) من المتر. وهذا الطول أصغر من طول موجة الضوء، وهو شيء لا يمكن رؤيته مطلقًا، ويمكن تقريبه للفهم بوصفه أصغر من عرض شعرة الرَّأس بسبعين ألف مرة؛ وعلى هذا فهو أصغر بكثير من أي شيء نُصنِّعه اليوم (١٠).

ولذلك يرى مؤمِّلو تقنية النَّانو أنَّ تقنية صناعة شَرائح الحاسوب الحاليّة تلفظ أنفاسها الأخيرة، أو قل تعيش في مرحلة الترَّنُّح؛ لما تستهلكه وتصيّعه من الحرارة، وأنّ البديل قد توفّره تقنية النّانو هذه. وإذ اتّجهت الأنظار إلى هذه التّقنية، فإنَّ، من الواضح، أنّ التَّقدُّم العلمي ألجأ أصحابه إلى البحث عن التَّفاصيل الدَّقيقة التي لا تُرى بالعين المجرَّدة لتيقّنهم من تأثيرها في التَّفاصيل التي يرونها بها؛ وإنّ هذه التَّفاصيل الدَّقيقة لا بدّ لها من لغة دقيقة واصفة تسهّل تداول مفاهيمها بين النَّاس؛ وإلاَّ أصبحت أوهامًا يتقاذفونها، ومصدر إشكال بدلاً من أن تكون مصدر حلٍّ أو علاج؛ وإنَّ أول ما يُطلب من هذه اللُّغة الأسماء الدّقيقة المبينة الّتي تسمَّى بها هذه الدَّقائق.

والملاحظ من خلال تتبُّع بعض منجزات هذه التَّقنية، التي ما تزال في خطواتها الأولى، أنَّ لغتها تتعقَّد أكثر فأكثر في الوقت الذي ينبغي أن تواكب الفهم الدقيق لغةٌ دقيقةٌ بيّنةٌ يسهل على المرء فهمها (٤). ومن مظاهر هذا التَّعقد استسهال علماء هذه التقنية إضافة كلمة "نانو" قبل كلِّ اسم علميّ سبق في المعارف الأولى. وقد أشار إلى يسر هذه الإضافة أحد العلماء المتخصصين في هذه التّقنية (١١). وهذا أمر مستسهل في إنجازه؛ ولكنَّ أقل ما فيه من تعقيد أنَّه يطيل الكلمات السَّابقة، ولا يفيد شيئًا في تمييز ما بين معانيها من فوارق لم تدرك من قبل، إذ أُلبقيت بلبسها مع إضافة لفظيّة تنسبها إلى التّقنية الحديثة. يبين لنا الجدول (٥)، بعض الكلمات المستخدمة في التّقنية المسيطرة اليوم، مقارنةً بما أصبحت عليه بعضها في تقنية النانو، وما سيصبح عليه بعضها الآخر في المستقبل القريب.

جدول (٥): كلمات في التقنيات المشهودة، ومصيرها في التَّقنيات المنظورة

كلمات في التقنيات اليوم	بدائلها في تقنية الغد (النانو)
scale	Nanoscale
Scopic	Nanoscopic
System	Nanosystem
Devices	Nanodevices
Materials	Nanomaterials
Fabrication	Nanofabrication
Technology	Nanotechnology
Transformation	Nanotransformation
Accelerometers	Nanoaccelerometers
Electromechanical	Nanoelectromechanical

ففي الوقت الذي تدقُّ فيه التَّقنية، فترينا تفاصيل صغيرة جدًا للأشياء من حولنا، تكبر الكلمات؛ وهذا دليل عجز بشري كبير لمن تأمَّل؛ والأولى أنَّها إن دقّت التفاصيل أن تدقّ اللُّغة لتتواكب المهارات التِّقنية واللّغويّة. ومن الواضح أن هذا لن يحدث، ما دامت هذه الإضافة أصبحت مألوفة ومستسهلة من قبل كلّ الباحثين. كان ينبغي لهذه الأسماء أن تصغر وتدق، لدقّة ما تصفه من عمليات، ولكنَّها كبرت فكبرت معها مشاكل استخدامها من قراءة، إلى معالجة، إلى إخراج، ولله في خلقه شؤون. أما ترى أيُّها الباحث، أنَّه كلما دقَّت التقنيات، ظهرت لنا علّة العجز المتمثّلة في الأسماء أكبر من ذي قبل؟.

www.eajaz.org

٤. تقنية الإنترنت

تتلقّف شبكة الانترنت (Internet) اليوم هذه العلوم والمعارف وتبثُّها على نطاق واسع، فمشكلتها في الاسم أوضح وأعظم وأعتى. إنّ الخلل الذي يصيب التقنية الواحدة ممَّا ذكرنا من جهة واحدة، يصيب الإنترنت من جهات كثيرة، لاختلاط المعارف، وتصارعها في ساحة واحدة بعد أن كانت في ساحات متناثرة متباعدة. فلمَّا تلقَّفت شبكة الإنترنت، فيما تلقَّفت علمي التَّصوير المتري وروافده، وتلقَّفت علم نظم المعلومات الجغرافية بقاعدته العريضة، اتَّسع الخرق على الرَّاقع في اللُّغة وأصبحت حجَّة العجز في المجيء بأسماء مختصرة معبرِّة عن أشيائها أمكن وأوضح.

وبضرب مثال عام، يتبيّن حجم مشكلة الاسم في الشّبكة العالميّة. لو استخدم المرء أحد محركات البحث، ليستخرج المعلومات التي تتعلّق بشخص ما باسمه الأول الذي لا يشاركه فيه أحد، لأصبح من السّهل الوصول إلى المعلومات المعنيّة دون لبس. وبما أن الاسم لا يكون إلاَّ مشتركًا بين عدد من النّاس، فسيفاجأ الباحث، في أحسن الأحوال، بكمٍّ هائل من مصادر المعلومات التي يلزمه الاطلاع عليها ليصل إلى مراده. ولو قال الباحث: أضيف اسم الأب والجد والعائلة إلى الاسم الأول، لتشعّبت به السّبل، وزاد الأمر سوءًا. ولو قال أتَّبع من تقنيات البحث أفضلها، فأبحث عنه بأطول أسمائه (الرّباعي، مثلاً)، وأحدّده بحاصرتين ("") مثلاً، لتحسّنت النَّتائج واقترب من المعلومة التي يريدها. فالشيء الواحد ما عاد يكفيه اسم واحد ليُعرف من خلاله على الشَّبكة، بل أصبح في حاجة عدد منها. إذن، أصبح الباحث يضطر إلى جملة ليعرف كلمة؛ بل إلى عدد من الأسماء لتحديد اسم واحد. إن هذا الوضع، لمن أعظم الأدلّة على أهمّيّة تمييز الأشياء بأسمائها، وكون الأسماء مكمن العجز في هذه الشّبكة المهولة، كما هو في التّقنيات السّابقة.

ب. العقبة الكؤود في العلم

وصلنا من خلال البحث والتَّقصي لسنوات طويلة، وعبر تقنيات من حقول مختلفة أنَّ العقبة الكؤود في هذه التقنيات هي أسماء الأشياء التي تحتوي عليها وليست أعيانها. فالأعيان منظورة؛ إنمَّا الجهل باسم الشيء هو الذي يجعله مجهولاً وإن رئي بالعين مباشرة أو عبر وسيلة أخرى. وهو الذي يجعل من عمليّة المعالجة الآليّة عقبة؛ كلّما تقدّم البحث فيها خطوة، رأى قبله خطوات من الصعوبات المتراكمة. ما دامت الأسماء بهذه الأهمّية، فدعونا نتتبّع تطوّر الاهتمام بها عبر عصور متتالية هي من أهم عصور الحضارة في الأرض، لنرى ما حدث، ولنربط ذلك بما رأيناه من أهميّتها في هذا العصر، لنصل إلى النّتائج التي يقودنا إليها البحث العلميّ الدّقيق.

الاســم

أولاً: مدخل إلى الاسم

العرب تقسِّم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، ثمَّ يقولون عن الاسم أنَّه كلمة يُعبر بها عن شيء. ويقولون عن الفعل أنَّه كلمة يعبر بها عن فعل شيء، والحرف لا يقوم بغيره. وبما أنّ فعل الشيء لا يكون إلاَّ في شيء يلزمه الاسم؛ فالاسم أشرف الكلمات وأهمها. يقول هرمز بن كسرى (أبرويز) لكاتبه في تنزيل الكلام: "إنمَّا الكلام أربعة: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وخبرُك عن الشيء، فهذه دعائم المقالات إن التمس إليها خامسٌ لم يوجد، وإن نقص منها رابع لم تتم". وقال لكاتبه أيضًا: "وأجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول" (١٢، ص ٢٧). وهذه هي المزيّة التي خُصَّ بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلَّم. وإنَّ المرء ليحتار فيما يختار من هذا البحر الزاخر ليدلل على مكانة الاسم في لغة العرب؛ فلنبدأ ببعض الشواهد من كلام العرب في الجاهليّة.

ثانيًا: الاسم في الجاهليّة

أ. الاسم في القول المعتاد

لقد كان احتفاء الجاهليين بأسماء الأشياء واضحًا لارتباطهم بالبيئة الطبيعية، واعتمادهم عليها، ومحبتهم لها محبةً عظيمة. إنّ من يطّلع على ما حُفظ من كلامهم، يجد ما يؤيد ذلك من التركيز على معرفة أسماء منابت الكلأ والماء لمن هو في البادية والحاضرة على حدٍّ سواء. فهم لذلك يسمّون الأماكن وإن تقاربت في مواقعها بأسماء متغايرة يعرفونها بها، ويميزونها حقَّ التمييز (٤). وبصفة عامة، فخطبهم قصيرة الجمل، كأنّها أمثال مترادفة، للأسماء فيها حضور مميّز؛ ومنها ما يكاد يقتصر على الأسماء فقط (١٣).

ب. الاسم في الشِّعر

سيُقتصر هنا على الشُّعراء الجاهليين المشهورين: امرئ القيس، المتوفى ٨٠ ق هـ (٥٦٥م)، وطرفة بن العبد، المتوفى ٧٠ ق هـ (٥٥٢م)، وعمر بن كلثوم، المتوفى ٥٢ ق هـ (٥٧٠م)، والحارث اليشكري، المتوفى ٥٢ ق هـ (٥٧٠م)، وعنترة بن شدّاد، المتوفى ٢٢ ق هـ (٦٠٠م)، والنّابغة الذبياني، المتوفى ١٨ ق هـ (٦٠٤م)، وعبيد بن الأبرص، المتوفى ١٧ ق هـ (٦٠٥م)، وزهير بن أبي سلمى، المتوفى ١٤ ق هـ (٦٠٨م). ويُتجاوز عن براعتهم في تسمية أشيائهم وأماكنهم بأسماء دقيقة (٤)، ويُركّز على مدى توظيف الشّاعر للفظ اسم في عمله.

بالرغم من كثرة الأسماء عند امرئ القيس، فإنّا لم نجد عنده لفظ "اسم" ولا أيًّا من مشتقاته؛ وكذلك الحال في شعر طرفة بن العبد، وفي شعرعمر بن كلثوم، وشعر الحارث اليشكري، وشعر عنترة، إلاّ ما ثبت عدم صحة نسبته إليه (٤، ١٤). أمّا النّابغة الذبياني، فجاء في ديوانه قوله: "نبئتُ زُرعة والسَّفاهة كاسمها يُهدي إليَّ غرائب الأشعارِ" (١٥، ص ٥٥). هذه هي المرّة الأولى في العصر الجاهلي التي يرد لفظ "اسم" صريحًا دون استدراك من أحد. ولم نجد عند عبيد بن الأبرص إلاّ قوله في مماتنة مع امرئ القيس: "ما السّود والبيض والأسماء واحدةٌ لا يستطيع لهن النّاس تمساسا؟ فيقول أمرؤ القيس: "تلك السحاب". هنا وردت كلمة اسم؛ ولكن النُّقاد لا يرون صحة نسبة هذه الشعر للشاعرين (١٦، ص ٨١). ولو افترضنا ثبوتها للشّاعر، فستظل دليل ندرة، كما هي عند النّابغة. وليس في شعر زهير بن أبي سلمى، شيء من لفظ اسم (٤). والخلاصة أنّه لا يوجد في شعر الجاهليين الذي يعكس لنا واقع حياتهم، سوى لفظ اسم واحد. فما سر ندرة هذا اللّفظ في أشعارهم، رغم كثرتها مجتمعة بين أيدينا؟.

ثالثًا: الاسم في العصر النَّبوي

أ. الاسم في القرآن الكريم

إذا ما جئنا إلى كتاب الله العظيم، وجدنا أنَّ أوَّل آية أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلَّم هي قول الله تبارك وتعالى: (اقرأ باسم ربك الذى خلق) (٣، العلق، ١)، وقد أحصيت في القرآن الكريم، من لفظ اسم ومشتقاته، ما لا يقلُّ عن ستين لفظًا، عدا البسملة التي جاءت في مئة وثلاث عشرة سورة؛ فيكون المجموع مئة وثلاثة وسبعين، على الأقل (٤). من ذلك ما قاله نوح عليه السّلام عند ركوب السّفينة: (بسم الله مجراها ومرساها) (٣، هود، ٤١)، وقول الله على لسان ملكة سبأ: (إنَّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) (٣، النّمل، ٣٠). وقوله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) (٣، الأعراف، ١٨٠). وقوله عزّ شأنه: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) (٣، البقرة، ١٤٤). وقوله في شأن ما يعبد من دونه سبحانه من أصنام وأوثان: (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها) (٣، الأعراف، ٧١). وختم هذه الآية وأيتين أخريين في سورتين مختلفتين بقوله تعالى ما نزَّل الله، أو ما أنزل الله بها من سلطان.

ويقول على لسان الملائكة مستجيبًا دعاء زكريا: (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) (٣، مريم، ٧). ثمَّ يقول في السُّورة ذاتها عن نفسه جلَّ شأنه: (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) (٣، مريم، ٦٥). فإذا كان يحيى عليه السَّلام ليس له سميٌّ من قبل، فإن الله جلَّ شأنه ليس له سميٌّ على الإطلاق. ويقول على لسان المسيح أيضًا: (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) (٣، الصّف، ٦). وجاء في تفسير قول البارئ عزَّ وجلَّ: (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) (٣، النّمل، ٤٠)، إنَّ الذي عنده علمٌ من الكتاب يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب (١٧، ص ٤٩٩).

ثمَّ للنظر في قوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين × قالوا سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم × قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنيِّ أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) (٣، البقرة، ٣١-٣٣). ولابن سيده كلام لطيف حول هذه الآيات، يقول فيه: "فإن قيل فاللُّغة فيها أسماءٌ وأفعالٌ وحروفٌ وليس يجوز أن يكون المُعلَّم من ذلك الأسماء دون هذين النَّوعين الباقيين فكيف خصَّ الأسماء وحدها؟ قيل اعتمد ذلك من حيث أن كانت الأسماءُ أقوى الأنواع الثَّلاثة؛ ألا ترى أنَّه لا بدَّ لكلٍّ كلام مفيد من الاسم، وقد تستغني الجملة المستقلّة عن كلٍّ واحد من الفعل والحرف. فلمَّا كانت الأسماء من القوّة والأوليَّة في النَّفس والرُّتبة بحيث لا خفاء به، جاز أن تكتفيَ بها ممَّا هو تالٍ لها ومحمولٌ في الاحتياج إليه عليها...." (١٨، ص ٣٤). سنرى هل تأثَّرت العقول البشريَّة بهذه المعلومات التي ما كانت في سابقهم من النَّاس.

ب. الاسم في قول الرَّسول الكريم

كان اهتمام الرّسول الكريم بالأسماء معنىً وفهمًا وتعليمًا بالغًا جدًّا، لاهتمام القرآن بها. فقد حرص عليه الصّلاة والسّلام، على تعليم أصحابه الأسماء الحسنة للنَّاس، ودعوتهم بها، وتغيير غير الملائم منها؛ يقول في حديث جاء عند مسلم وغيره: "وَلَا تُسَمِّيَنَّ غُلَامَكَ يَسَارًا وَلَا رَبَاحًا" (٢، مسلم، حـ ٣٩٨٥). كما أنَّه عليه السَّلام: "غير اسم عاصية، وقال أنت جميلة" (٢، مسلم، حـ ٣٩٨٧). وحوَّل اسم برَّة إلى جويرية، وكذلك فعل مع زينب بنت أم سلمة، وزينب بنت جحش حيث كان اسمهما برَّة (٢، مسلم، حـ ٣٩٩١). وأخبر أصاحبه بأحسن الأسماء، فقال: "إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن" (٢، مسلم، حـ ٣٩٧٥). وأخنى الأسماء يوم القيامة عند الله "رجلٌ تسمَّى ملك الأملاك" (٢، البخاري، ٥٧٣٧). وقال: "سمّوا باسمي ولا تكنُّوا بكنيتي" (٢، البخاري، حـ٢٨٨٣). وهذا دليلٌ على كون اسمه لم يكن مألوفًا من قبل؛ إذ لو كان كذلك، ما أمرهم بهذا.

ولم يقتصر تعليمه لأصحابه على أسماء النَّاس؛ بل تجاوز ذلك إلى أسماء الأشياء الحسِّية الأخرى والمعنويّة؛ فتراه صلَّى الله عليه وسلَّم ينهاهم أن يسمُّوا العنب كَرْمًا: "لَا تَقُولُوا الْكَرْمُ؛ وَلَكِنْ قُولُوا الْعِنَبُ وَالْحَبَلَةُ" (٢، مسلم، حـ ٤١٧٦). ويقول عن صلاة العشاء: "لَا يَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمْ فَإِنَّهَا الْعِشَاءُ" (٢، أحمد، حـ ٤٤٥٩). كان الأعراب يسمونها العَتمة فأنكر ذلك.

وقال صلى الله عليه وسلَّم: "إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا..." (٢، البخاري، حـ ٢٥٣١). وعلمنا منه صلى الله عليه وسلَّم إنَّ لله اسمًا أعظم إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى. وكان يَسْتَفْتِح صَلَاتَهُ بقوله: "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُك..." (٢، الترمذي، ٢٢٥). وإذا أَوَى إِلَى فِرَاشِه، قالَ: "بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِي" (٢، أحمد، حـ ٧٤٧٧). وإذا شرع في أكله، قال باسم الله.

إذن الرَّسول الكريم كان أول من إعتنى بالأسماء، وعلّم النّاس الحسن منها، ونهاهم عن أن يتسمّوا بالسيء منها، أو بما يؤدي إلى معنى غير محمود عند استعمالها؛ ومجَّد الله بأسمائه الحسنى الّتي لم تكن مألوفة لبشر من قبل. دعونا نرى كيف ستسري هذه المفاهيم الجديد في حياة النَّاس من الآن إلى ما شاء الله؟.

ج. الاسم عند المخضرمين

١. الاسم في القول المعتاد

لقد شرع النّاس في إيراد مفاهيم الإسلام في أقوالهم وخطبهم مع كثرة إيرادهم لأسماء أماكنهم وأشيائهم وإيجازهم في ذلك كما هو ديدنهم (انظر مثلاً ١٣، ١٩). ونكتفي بشاهد من أكثم بن صيفي وهو يخبر قومه بني تميم بخبر الرَّسول، فيقول: "... إنَّ ابني شافَهَ هذا الرَّجل مشافهةً، وأتاني بخبره، وكتابُه يأمر بالمعروف، وينهى عن المُنكر.... وقد كان أسقفُ نجران يُحدِّث بصفته، وكان سُفيان بن مُجاشع يُحدِّث به قبله، وسمَّى ابنه محمدا...." (١٣، ص ١٦٠). دليلٌ من أكثم بن صيفي، يكفينا عن غيره من الأدلّة الكثيرة (انظر مثلاً، ٤، ١٩).

٢. الاسم في الشِّعر

سيكتفى هنا بثلاثة من أهمِّ الشُّعراء الجاهليين الذين عاصروا البعثة النّبوية، وهم: ميمون بن قيس (الأعشى) المتوفى ٧هـ (٦٢٩م)، ولبيد بن ربيعة المتوفى ٤٠هـ (٦٦٠م)، وحسان بن ثابت المتوفى ٥٠ هـ (٦٧٠م)، ونجري على أعمالهم من البحث ما أجريناه على أعمال من سبقهم من شعراء الجاهليَّة الّذين لم يدركوا الإسلام.

أ. الاسم عند الأعشى

لفت نظري في شعر الأعشى قوله: إن بعض ممدوحيه "كفى ماله باسم العطاء الموعَّد" (٢٠، ص ١٣٤). فها هي لفظة "اسم" ترد عند الشَّاعر. فإذا ما نظرنا إلى القصيدة التي جاءت فيها هذه اللفظة وجدناه يقول فيها: "لعمر الذي حجَّت قريشٌ قطينه"، ويقول: "فلا تحسبني كافرًا لك نعمةً عليَّ شهيدٌ شاهد الله فاشهد". فهذه كلمات فيها نبضٌ إسلاميٌّ ظاهرٌ. وهناك شاهدٌ آخر يعزّز هذا المنحى الجديد عند الشَّاعر، حيث يقول: "وإنِ امرؤٌ أسدى إليك أمانةً فأوف بها إن متَّ سُمِّيت وافيا" (٢٠، ص ٣٧٤). قال المحقق في صفحة ٣٧٢: "إنَّ الشّاعر قد صنع القصيدة بعد أن بلغه شيءٌ من مبادئ الإسلام وتعاليمه". وأي شيءٍ يصح ممَّا قيل حول قصيدة هذا البيت فهو معزّزٌ لما نرمي إليه من رأي. فإن كانت ليست للأعشى اختفت من عمله وقلَّ توظيفه لها، وصحت نظريتنا لكون أكثر حياته كانت في جاهليّة، وهذا ما نرمي إليه. وإن كانت له بعد أن أدرك الحياة الجديدة، وعرف بعض مفاهيمها، صحت نظريتنا أكثر، وهذا ما نرمي إليه أيضًا. ثمَّ لننظر إلى قول المحقق: "أن الشَّاعر يعالج مواضيع ومعاني جديدة يروِّض الشِّعر فيها". قلت: توظيف لفظة اسم يُعد من هذه المعاني الجديدة التي لم تكن مألوفة، والله تعالى أعلم.

ب. الاسم عند لبيد بن ربيعة

لبيد من الشُّعراء الّذين أسلموا وحسن إسلامهم، وعمَّر طويلاً رضي الله عنه وأرضاه. وقد ذكر في جوابه سؤال عمر رضي الله عنه عن الشَّعر، أن الله أبدله به سورة البقرة وآل عمران. وهذا يعني أنَّه قد هجر الشِّعر ولم يعتن به إعتناء غيره من الشعراء. ورغم هذا الهجر، فقد ورد لفظ اسم في شعره في موضعين أيضًا. يقول في أحدهما لبنتيه ابكيا عليَّ إذا متُّ "إلى الحول ثمَّ اسم السَّلام عليكما" (٢١، ص ٥١). ويقول، في الثَّاني عن نفسه مع ربعه، إنَّني "لعبت على أكتافهم وجحورهم وليدًا وسمَّوني مفيدًا وعاصما" (٢١، ص١٢٧).

ج. الاسم عند حسَّان بن ثابت

وجدت في قصائد حسّان بن ثابت، ما يعزز بوادر النَّهج المعرفي الجديد عند الأعشى ولبيد، ويزيد عنهما في إيراد لفظ اسم زيادة ظاهرة، حيث ذكر ذلك أربع عشرة مرة. وهو بهذه القفزة الكبيرة يختلف اختلافًا بيّنًا عن الشُّعراء الجاهليين من أسلم منهم ومن لم يسلم، وينقلنا إلى عالم آخر من الإبداع يُعدّ شعره من أكبر شواهده.

وعلى ذلك يمكننا اعتبار شعر حسَّان مبتدأ تحوُّلٍ كبيرٍ في الشّعر، وفي المعرفة الإنسانية برمتها.

هاهو يقول عن الرَّسول محمد صلى الله عليه وسلم في إشارة بيّنة لهذا النّهج الجديد: "وضمَّ الإله اسم النبيّ إلى اسمه إذا قال في الخمسِ المؤذِّنُ أشهدُ. وشقَّ له من اسمه ليجلهِ فذو العرش محمود وهذا محمد" (٢٢، ص ٤٧). ويقول عن قومه الأنصار: "سماهم الله أنصارًا لنصرِهم دينَ الهدى" (٢٢، ص ١١٢)؛ ويقول: "وأكرمنا باسم مضى ما له مثلُ" (٢٢، ص ١٩١). ويقول في سبِّ أبي جهل: "سمَّاه معشرُه أبا حكم والله سمَّاه أبا جهلِ" (٢٢، ص ٢٠٣). ويذمُّ رجلاً اسم والده عُزيز، فيقول: "وكان ذليلاً من طريدٍ مُلعَّنٍ فَسمَّوه من بعد الذليل عُزيزا" (٢٢، ص ١٣٤). ويقول للنّاس عن المغيرة: "تسمون المغيرة وهو ظلمٌ ويُنسى ديسم الاسم القديم" (٢٢، ص ٢٤١). ويظلُّ يذكِّر الوليد بن المغيرة بهذا الاسم الذي يحاول نسيانه، فيقول: "قل للوليد متى سُمِّيت باسمك ذا أم كان ديسمُ في الأسماء كالحُلُم" (٢٢، ص ٢٤٢). ويقول عن نفسه موضِّحًا موقفه من قومه: "إنيٌّ لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا حتَّى الممات وما سُمِّيت حسانا" (٢٢، ص ٢٤٨). من الواضح أنَّ حسَّان فتح بابًا عظيمًا في المعرفة ما كان مشرعًا قبله. ولا ريب أنَّه ما كان ليفعل ذلك لو لم يسلم، ويصحب الرَّسول صلى الله عليه وسلَّم، وينهل من مصادر التّشريع: القرآن الكريم، والسُّنة النبوية المطهّرة. إنَّنا لم نر لفظ اسم في أعمال الشُّعراء بارزًا، وهم أرباب اللُّغة، إلاَّ لدى من عاصر البعثة النَّبوية المطهَّرة، وأخذ عن الرّسول الكريم العلم.

رابعًا: الاسم في العصر الأموي

أ. الاسم في القول المعتاد

الذي يريد أن يأتي بأمثلة من احتفاء النَّاس بالأسماء في القول والتَّاليف، في العصر الأمويّ البالغ ما يقارب قرنًا من الزمان (٤١-١٣٢هـ)، هو كمن يريد أن يدلل على أن الشمس تشرق من الشرق؛ ولكن نورد ثلاثة أدلّة فيها ما يُعزّز ما نحن فيه من بحث. ها هو ابن عبَّاس رضي الله عنهما يقول: "وإن الله جلَّ ثناؤه وتقدَّست أسماؤه، اختار محمدًا صلى الله عليه وسلَّم لرسالته...." (١٣، ص ٢٤٧-٢). ويقول أحد الخطباء: "أمَّا بعد: فإنَّ الله كتب الجهاد على خلقه، وسمَّاه كرهًا" (١٣، ص ٩-٢). ولمَّا توفى عبدالملك بن مروان وتولىَّ ابنه الوليد احتار النَّاس أيعزونه أم يهنئونه، فقال غيلان بن سلمة الثقفي: "يا أمير المؤمنين، أصبحتَ قد رُزئت خير الأباء، وسُمِّيت خير الأسماء" (٢٣، ص ٣٢٨)؛ فلفظ اسم أصبح على الألسن دون ريب.

ب. الاسم في الشِّعر

ندلف في الشّعر إلى ثلاثة من أشهر شعراء العصر الأموي، وهم: الأخطل، غيَّاث بن غوث (١٩- ٩٠ هـ)، والفرزدق، همام بن غالب (٢٠-١١٤هـ)، وجرير بن عطيّة (٣٠-١١٤هـ)، فنرى ما عندهم في عالم الاسم حسب المنهج الذي اختطيناه.

١. الاسم عند الأخطل

أورد الأخطل لفظ اسم في أربعة مواضع منعته من كسر القاعدة المُطَّردة. اسمعه يهجو رجلاً يُدعى خنجرًا فيقول: "أمن عوزِ الأسماء سُمِّيت خنجرًا وشرُّ سلاح المسلمين الخناجرُ" (٢٤، ص ٣١١). ويقول لآخر يُدعى كعب بن جُعيل: "سُمِّيتَ كعبًا بشَرِّ العِظام وكان أبوك يُسمَّى الجُعل" (٢٤، ص٤٩٦). وقد يشفع للأخطل في ندرة توظيف لفظ اسم كونه بقي على دينه فلم يتشرَّب كثيرًا الثَّقافة التي تشرَّبها غيره من الدِّين الجديد.

٢. الاسم عند الفرزدق

إذا ما جئنا إلى لفظ اسم عند الفرزدق وجدنا إبداعه فيه حافلاً؛ إذ ورد عنده ثلاثين مرّة على أقل تقدير (٤)؛ نورد بعضها للتدليل فقط. يقول مثنيًّا على الله جلَّ في علاه: "رسائل ذي الأسماء من يدعه بها يجد خير مسؤولٍ عطاءً لسائل" (٢٥، ص ١٨٩-٢). ويقول في هجاء رجلٍ اسمه محمد: "تنح أهان الله مثواك خاسئًا عن اسمِ نبي العالمين محمدِ" (٢٥، ص ١٧٢). وقوله عن سليمانَ بن عبد الملك: "وكان الذي سمَّاه باسم نبيِّه سليمان إن الله ذا العرش جاعله" (٢٥، ص ١٤٢-٢). ويقول: "أبي غالبٌ والله سمَّاه غالبًا" (٢٥، ص ٢٥-٢). ويقول: "فقد تلتقي الأسماء في النَّاس والكُنى كثيرًا ولكن لا تلاقى الخلائق" (٢٥، ص ٩١-٢). لقد فاق الفرزدقُ الأخطلَ معاصره في لفظ اسم، وقد يفوق جريرًا كذلك.

٣. الاسم عند جرير

كاد جريرٌ أن يخذلني، فلم أجده ذكر لفظ اسم إلاَّ في أماكن خمسة. وقد جاءت هذه الألفاظ في قوله: "إنَّ سليطًا كاسمها سليطُ" (٢٦، ص٢٣٧)، وقوله: "وبنو قُفيرة قد أصابوا نهشلاً باسم العُبودة قبل أن يتصعصعوا" (٢٦، ص ٢٤٨). وقوله: "يسمُّون الفُليس ولا يُسمى لهم عبدالمليك ولا هشامُ" (٢٦، ص ٣٧٩). وقوله: "لا تدعواني اليوم إلاَّ باسمي" (٢٦، ص ٣٩٥). وعلى رغم قلة ورد لفظة اسم في إبداع جرير مقارنةً بالفرزدق؛ إلاَّ أنَّها كافية لاطِّراد الرؤية التي نسعى لتأكيدها. وقد حمل الفرزدق صاحبيه، وعكس لنا ثقافة الاسم في عصره، فهو شاهدٌ يكفي عن أمَّة من النّاس.

خامسًا: الاسم في العصر العبَّاسي

أ. الاسم في القول المعتاد

خرج العلم في عصر بني العبّاس من الصّدور إلى الكتب، فأصبح الباحث يجد مؤلفات ما أسماه أهل اللُّغة علم المعاني مقارنةً بعلم الألفاظ، ككتاب الألفاظ لابن السِّكِّيت، وأدب الكاتب لابن قتيبة، والألفاظ الكتابية للهمداني، والتلخيص في معرفة أسماء الأشياء لأبي هلال العسكري، وفقه اللُّغة وأسرار العربية للثَّعالبي، والمخصَّص لابن سيدة، الذي يرى أهل العلم أنَّه منتهى ما بلغت إليه التأليفات في علم المعاني أو معاجمها. ومن يطَّلع عليه يعلم مدى الدِّقة والتفصيل في تسمية الأشياء بأسمائها. وللباحث مع بعض ما جاء في هذا الكتب تجربة طريفة ساقها في كتاب أسماء الأشياء والعلم والتّقنية (٤، ص ١٥٩). والأدلّة كثيرة من هذه الكتب ومن غيرها؛ ولكن يكفينا ما قال الزمخشري في مقدمة كتابه أساس البلاغة، حيث يبتدئ بتمجيد الله ... "إذ ليس بالمُشارك في اسمه المبارك (... هل تعلم له سميًّا)"؛ ويزيد فيصلِّي "على النَّبي العربيِّ المُستلِّ من سلالة عدنان، المفضَّل باللِّسان، الذي استخزنه الله الفصاحة والبيان" (٢٧، ص م). فنحن أمام علم جمّ، يأتي في لغة جميلةٍ سلسة، وأمام زخم غير عادي من ثقافة الاسم المطّردة.

ب. الاسم في الشِّعر

يُقتصر في هذه المرحلة من البحث، على أشهر شعراء العصر العبّاسي، وهم: أبو تمَّام، المتوفَّى ٢٣١هـ (٨٤٦م) والبحتري، المتوفَّى ٢٨٤هـ (٨٩٧م)، والمتنبِّي، المتوفّى ٣٥٤هـ (٩٦٥م)، ونجري على أشعارهم ما أجريناه على شعر من سبقهم من بحث.

١. الاسم عند أبي تمَّام

يحفل إبداع أبي تمَّام، بلفظ اسم ومشتقاته، فقد أحصيت منه ما لايقل عن ثلاثة وخمسين لفظًا (٤)؛ منها قوله لممدوحه: "ولولا سيفك الماضي لسمَّوا خليليَّ ملَّة ومحمَّدين" (٢٨، ص ١٥٢-٢). وقوله ممتدحًا طبائعه وعواطفه: "وحَوَانٍ أبت عليها المعالي أن تُسمَّى مطيَّةً الأحقاد" (٢٨، ص ١٩٤). وقال عنه إنَّه يحمل "ثقلاً لو أنَّ متالعًا حمل اسمه لا جسمه لم يستطع أن ينهضا" (٢٨، ص ٣٩٠). ويقول لخصمه: "كيف يصفو لك الهوى يا سَميَّ ابن الأعمشِ" (٢٨، ص ٣٤٧-٢). ويأتي بمعنىً طريفٍ يشبه ما نفعله اليوم في البحث بكلمة عن جملة معلومات في قواعدها الحاسوبية الهائلة: "نقَّرتُ باسمك في الظَّلام مسدِّرًا داود إنَّك في الفعال حميدُ" (٢٨، ص ٣٠٩). ويبدو أنَّه لم يخب ظنُّه، فداوُد هذا وسيلةٌ متينةٌ، تدلف به إلى مبتغاه بسرعةٍ فائقة.

٢. الاسم عند البحتري

يأتي البحتري دون أبي تمّام قليلاً في كثرة ذكر لفظ اسم، حيث جاء عنده في خمسة وأربعين موضعًا، على أقل تقدير (٤). منها قوله في مدح المستعين بالله: "أراد الله أن تبقى معانًا فقدَّر أن تُسمَّى مستعينا" (٢٩، ص

١١٧). وقوله مثنيًا على الخليفة: "وأبهجنا ضرب الدَّنانير باسمه" (٢٩، ص ١٥٤). ومبالغته في مدح من قصده حتَى أن "المكارم أصبحت أسماؤها مشتقةً في النَّاس من أسمائه" (٢٩، ص ٧٢-٢). ويقول منوّهًا باسم رجل: "سمَّته أسرته العلاء وإنمَّا قصدوا بذلك أن تتمَّ عُلاهُ" (٢٩، ص ٣٣٦). وقال في صورة بديعة: "فزَّعوا باسمك الصَّبيَّ فعادت حركات البكاء منه سكونا" (٢٩، ص ٢٨١). وقال يهجو رجلاً اسمه مرٌّ بن علي بن مرّ: "تكرَّه للتَّسليم حتى ظننته يلوك اسمه من حنظلٍ هو هائبه" (٢٩، ص ٢٩٢-٢). وقال في لفتة ذكيّة تداوى بها النّفوس: "أدعُ الصَّاحبَ لا أعذله لا يُسمَّى بعقوقٍ فيعق" (٢٩، ص ٣٦٤).

٣. الاسم عند المتنبِّي

وجد لفظ اسم في ديوان المتنبّي في سبعة وأربعين موضعًا على أدنى تقدير (٤)؛ فهو والبحتري متقاربان في العدد، وليسا ببعيدين عن أبي تمَّام. ومن أمثلة ما جاء في عمله، قوله في تأثير ذكر الاسم عليه وعلى من حوله: "إذا نحن سميَّناك خلنا سيوفنا من النَّيه في أغمادِها تتبسَّم" (٣٠، ص ٢٣٧). وقوله في بيت جميل بديع في صفحة ٢٤٥: "ونُصفي الذي يُكنى أبا الحسنِ الهوى ونُرضي الذي يُسمى الإله ولا يُكنى"؛ عزَّ جاهه وتقدَّست أسماؤه. وقال مبالغًا في ذكر ابن العميد: "ومن يصحب اسم ابن العميد محمدٍ يسر بين أنياب الأساود والأسد" (٣٠، ص، ٤٠٣). وقال بعد أن نجى الدُّمستق من الموت هربًا وترك ابنه يحتضر في المعركة: "لذلك سمَّى ابن الدُّمستق يومه مماتًا وسمَّاه الدُّمستق مولدا" (٣٠، ص ٢٨٤). ولنختم بقولٍ لطيف المعنى، يسدّ عن غيره؛ فها هو أبو الطَّيب يزيدنا وظيفةً من وظائف الاسم، حيث يقول: "أبا شجاعٍ بفارسٍ عضُد الدَّولة فنَّاخسروًا شهنشاها. أسميًا لم تزده معرفةً وإنمَّا لذَّة ذكرناها" (٣٠، ص ٤٠٧). فهو يبرِّر سرد هذه الألقاب باللّذة التي يجدها فيها.

سادسًا: الوعي بالاسم والتَّحول الكبير

ظهرت، من خلال هذه الدِّراسة المتمعّنة، حقبة التَّحوّل االكبير في المعرفة الإنسانيّة برمّتها. فمنذ نزول القرآن الكريم، والمعارف الإنسانية تتنامى وتتعاظم؛ ولكنَّها تظلّ متمحورةً حول هذا المفهوم الذي ما كان ليهتمَّ به لولا الرِّسالة المحمديّة الخالدة التي بلّغها الرّسول الكريم عن ربَّه جلَّ وعلا. ولكي يظهر لنا هذا التّحول المعرفي جليًّا، جُمع في جدول (٦) ما تمَّ العثور عليه من معلومات تخصّ لفظ اسم عبر العصور التي اختيرت بعناية للدِّراسة. يُظهر الجدول حقبة الوعي بقيمة الاسم الَّتي هي زمن البعثة النَّبويَّة المشرَّفة؛ ومن ثمَّ بداية توظيفه في المعارف المختلفة قولاً معتادًا وشعرًا. ودليل على صحة ذلك ما كان من شعراء العصور التَّالية لعصر الرَّسول الكريم من كثرة الالتفات للأسماء والاقتباس من المنهلين العظيمين: القرآن الكريم، وقول الرّسول الأمين. ويبين جدول (٧)، هذا التّحول الهائل في ثقافة الاسم، بحسب العصور إجمالاً، بطريقة مختصرة. ويمكن تصوَّر مقدار التَّحوّل في ثقافة الاسم من الشكل (١)، الذي يبينٍّ بالرَّسم الأرقام الواردة في الجدول الأول؛ ومن الشكل (٢)، الذي يفسّر لنا أرقام الجدول الثاني، بحسب العصور، ليظهر التَّباين الهائل بين الحقبتين: السَّابقة للبعثة النّبوية، والتّالية لها.

جدول (٦): لفظ اسم عند سبعة عشر شاعرًا في الأزمنة الأربعة

عصر الشَّاعر	ترتيب الشَّاعر	اسم الشَّاعر	عدد لفظ اسم
الجاهلي	١	امرؤ القيس	٠
	٢	طرفة	٠
	٣	عمرو بن كلثوم	٠
	٤	الحارث اليشكري	٠
	٥	عنترة بن شدَّاد	٠
	٦	النَّابغة الذُّبياني	١
	٧	عبيد	٠
	٨	زهير	٠
النبوي	٩	الأعشى	٢
	١٠	لبيد	٢
	١١	حسَّان	١٤
الأموي	١٢	الأخطل	٤
	١٣	الفرزدق	٣٠
	١٤	جرير	٥
العبّاسي	١٥	أبو تمَّام	٥٣
	١٦	البحتري	٤٥
	١٧	المتنبِّي	٤٧

جدول (٧): لفظ اسم لمجموع الشّعراء في كلِّ عصر من العصور المختارة

عصر الشُّعراء	عدد الشعراء	عدد لفظ اسم
الجاهلي	٨	١
النبوي	٣	١٨
الأموي	٣	٣٩
العباسي	٣	١٤٥

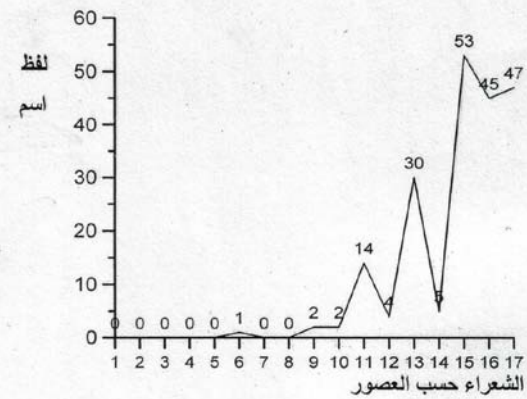

شكل (١): لفظ اسم عند عدد من الشعراء، ثمانية منهم في الجاهلية، وثلاثة في كل من العصر النّبوي، والأموي، والعباسي (٤).

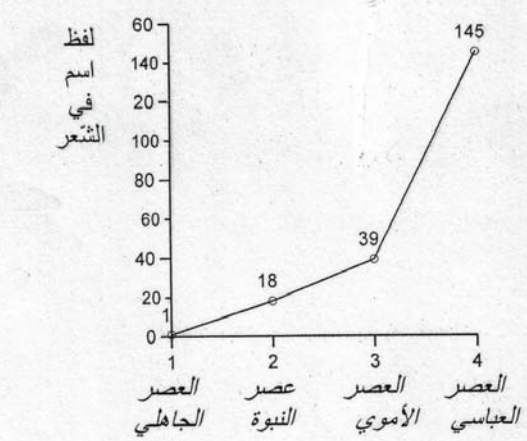

شكل (٢): حال لفظ اسم فى الشّعر قبل وبعد عصر النّبوّة (٤).

الأسماء والإعجاز العلميّ العظيم

أ. الإعجاز القرآني

ظهر للباحث جليًّا أن المجيء بأسماء جامعة مانعة تُسمي بها الأشياء التي تُعالج أو تُدرس هو ما يعوز العلوم والتقنيات على اختلاف أنواعها؛ فالأرقام لا تغني عن الأسماء شيئًا وإن بدت سهلة المتناول والمعالجة. ولا ريب أنَّ هذا هو مكمن العجز البشري أو العقبة الكؤود الباقية في سبيل العلم أبد الدّهر. لمَّا ظهر ذلك، عاد الباحث إلى القرآن الكريم ليلتمس نورا، فوجد الحقيقة الناصعة التي لا يجادل فيها إلاَّ غويّ. لقد أخبرنا الله في القرآن أنّ العلم الّذي فُضّل به آدم على الملائكة هو علم الأسماء الذي علَّمه إياه؛ قال تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنيِّ أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) (٢، البقرة، ٣١-٣٣). هاهي المعارف البشرية المتعاظمة في عالم اليوم تدلف بعد قرونٍ متطاولة من التراكم المعرفيّ، إلى رحاب الأسماء فتجدها مكمن العجز؛ وليس لها منها إلاَّ ما علّمه الله خلقه. إذن، العلوم والمعارف الّتي ذهب فيها النَّاس كلَّ مذهب، ووصلوا فيها منازل عظيمة من التَّقدّم، تعود، في أصلها، إلى أسس العلم الّتي أختصرت في القرآن الكريم أيّما اختصار منذ أن تنزّل الوحي على محمدٍ صلّى الله عليه وسلَّم قبل أربعة عشر قرنًا وربع القرن من الزَّمان. فوجه الإعجاز هنا هو إشارة القرآن الكريم إلى أسّ العلم وأصله قبل أن تتطوّر العلوم والمعارف وتُعلم الحاجة للأسماء فيها كلّها. فالآية لم تقل إنّ الله علّم آدم الحروف أو الكلمات أو اللّغة بل نصّت على الأسماء بعينها، وفي هذا من الدّلالات ما فيه لكلّ متبصّر. من ذلك على سبيل المثال، إنَّه إذا كان القرآن من لدن محمد، كما يقول المبطلون، فمن علَّم هذا النَّبي الأمّي، في الأمّة الأميَّة، أنَّ الأسماء هي أساس العلم، لتنصّ عليها الآية الكريمة بعينها؟. وقد رفدنا هذا الكشف العلميّ ببيان أن لفظ اسم لم ينتشر في اللّغة ولا في الاستعمال إلاَّ بعد نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلّم.

www.eajaz.org

قد يقول قائل إذا كان هذا منتهى علم البشر، ولم نهتد له إلاَّ اليوم، فكيف أنزل على جاهليين وفهموه؟ فيقال: ما كانت الجاهليّة جاهليّة إلاَّ في الدِّين وهو عظيم؛ أمَّا في شؤونهم الأخرى فهم بلا شك أجدر النَّاس لغةً، ومن ثمَّ علمًا بتلقي كتاب الله، وإلاَّ لما أنزل عليهم بهذه البلاغة وهذا الإعجاز. ما جدوى رسالة ترسل إلى قوم ليسوا مهيئن لها تهيئةً جيدةً؟! إنَّ المرء إذا علم اللُّغة ودلالاتها، أصبح قادرًا على فهم ما تنقله إليه من علم ومعرفة، ومهيئًا لفهم ما يستجدّ منها، بمشيئة الله.

وقد يقول قائل أيضًا: إذا كان الله جلَّ في علاه علَّم آدم الأسماء كلَّها فمن أين يأتي العجز للبشر فيها؟ فيقال: الظاهر لنا من خلال ما يراه المرء في واقع الحياة، من خلال أقوال بعض المفسرين (مثل ٣١، ٣٢)، أنّ الله

منح الإنسان القدرة على تسمية الأشياء؛ لكن الإحاطة بكلِّ الأسماء متعذِّرة. ولذلك فالمرء لا يعجز أن يُسمِّي الشيء بأيّ اسم، لكنَّه يعجز أن يحيط بالأسماء لكثرة مسمياتها، ويعجز عن حفظها واستخدامها كلّها لقصر مدى إحاطته ببعضها، ولانشغال الذاكرة بسواها؛ كما أنَّه سريع النّسيان للأسماء إذا لم تكن الحاجة قائمة لمسمياتها، وحاجات الإنسان محدودة مهما كثرت فهو لا يشغل من الكون شيئًا كبيرًا، ولا يشغل عمله منه شيئًا عظيمًا. وهو فوق ذلك يعجز عن التَّواطؤ مع كلّ من حوله على أسماء محددة متمايزة للأشياء في اللغة الواحدة، فكيف باختلاف الألسن. إذن، القدرة متيسّرة، والإحاطة متعذِّرة. وقد جاء في هذا البحث وفي غيره (٤)، من الشّواهد الكثيرة، ما يبرهن على هذا القصور ويثبته. ثمَّ أليس الله تبارك وتعالى هو القائل: (وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلا) (٣، الإسراء، ٨٥). الجدير بالذّكر أن جلّ أقوال المفسرين المعتبرين تدور حول ماهيّة الأشياء التي علّم الله آدم أسماءها، مع التّركيز على شرح الألفاظ والمعنى الإجمالي للآيات، كما هو مألوف.

ب. الإعجاز النَّبوي

لقد حدثنا، أيضًا، معارف اليوم وتقنياته المتسارعة بشكلٍ مُذهل إلى النّظر في أحاديث الرَّسول الكريم من منظور علميٍّ آخر. فعرفنا مفاتيح العلم، وكيف وظّفت. وتوقّفنا عند قوله صلّى الله عليه وسلّم: "بعثت بجوامع الكلم" (٢، البخاري، حـ ٦٧٣١)، فعلمنا أنَّه إنّما أُوتي العلم الذي يعجز عنه غيره، وهذا ما ظهر لنا من خلال البحث والتَّقصّي في علوم ومعارف تمثّل منتهى ما وصل إليه العقل البشري في عالم اليوم. ولا ريب، أن المعارف الأخرى القائمة والمستجدّة يجري عليها النَّاموس نفسه وإن لم نبحثها، فوسائلها التَّقنيات التي ذكرناها في مطلع البحث. أليست كلُّ المعارف اليوم بحاجة إلى هذه القدرة اللّغويّة العظيمة، ليختصر الكلام ولتُسمّى الأشياء بأسمائها. وكلّنا يعلم أنَّه إذا لم يسمّ الشيء باسمه، فقد يوصف بكلمات متعدّدة تخلّ بالإيجاز، وقد لا تبيّن المعنى المقصود كما ينبغي. إن خاصيّة جوامع الكلم لهي معجزة عظيمة من معجزاته صلى الله عليه وسلَّم؛ نرى ذلك كلما تقدَّمنا فهمًا في علومنا ومعارفنا الدّنيوية المحدودة.

www.eajaz.org

ج. الرّسالة الخاتمة

أختم بأمرٍ مهم جدًّا، فأقول: إذا كان كلُّ رسولٍ بُعث بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه من علوم ومعارف، فإن معجزة الرَّسول محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلَّم هي من جنس ما برع فيه كلّ النَّاس دون استثناء. إنَّها في الكلمة، أو قل في اللُّغة. أليست كلُّ أمَّة تفتخر بلغتها وتراها فوق لغات الأرض، أو ترى فيها من الكمالات، والملكات، ما ليس في اللُّغات الأخرى، في أقلّ الأحوال؟. فهل تستطيع أيّ أمَّة بلغتها أن تتجاوز العجز الملازم لعلوم اليوم ومعارفه، الكامن في الأسماء التي جاء ذكرها في القرآن المنزل على سيد البشر. هل في مقدور أيّ أمَّة أن تجعل لها لسانًا لا تنفد كلماته. وهل تستطيع أيّ أمّة، مهما بلغت من العلم، أن تأتي بمثل القرآن الكريم، وبمثل ما جاء به محمد بن عبدالله من علم وبيان، ولو بلغتها. لا ريب أنَّ كلَّ أمَّة سيظل عجزها قائمًا في الأسماء؛ فسبحان من

علّمها الإنسان، وأخبره أنَّه لم يؤت من العلم إلاَّ قليلا، . سبحانه جلّ في علاه، من لا تنفد كلماته، هو الَّذي أكرم سيّد الخلق "بجوامع الكلم"، وجعل رسالته المعجزة هي خاتمة الرّسالات إلى يوم الدّين. والحمد لله على أن أرشدتنا العلوم التي يسمّونها تجريبيّة أو تقنيّة أوبحتة أو طبيعيّة إلى هذه الرّسالة الخالدة ذات التَّحدي الباقي أبد الدّهر. ولا ريب أنَّه يحق للمسلم أن يفتخر برسالته، لما قدّمته للعالم من علم ومن منهج علميّ رصين، بعد أن اندثرت الحياة العلميّة والمعرفيّة على وجه الأرض.

الخلاصة

بُنيت التَّقنيّة الحديثة على تراكم معرفيٍّ إنسانيٍّ طويل المدى، وقادت، في أوج نهضتها اليوم، الباحث إلى أنّ معضلتها ومعضلة علومها المختلفة تكمن في الأسماء عماد المعلومات النّوعيّة التي لا تقوم بدونها. إذن العقبة الكؤود في سبيل العلم والتّقنية هي أسماء الأشياء المراد معالجتها أو دراستها. يظهر هذا جليًّا سواء أراد المرء أن يعالج المعلومات بنفسه أو أراد من الآلة أن تحلّ محله، فتقوم بعمله التّقني أيًّا كانت مهنته؛ إنّ أول ما يعجزه في أن يجعلها تتعرّف على الأشياء المعالجة، أسماء تلك الأشياء لا أعيانها؛ فأعيانها تُرى بالعين مباشرة أو تُقرّب للعين بوسيلة أخرى؛ أمَّا أسماؤها فيشوبها الخلل لعجز الإنسان أن يحيط بها، ولقلّة علمه منها. فالإنسان يظلّ عاجزًا عن أن يغذّي الآلة بأسماء متمايزة لما يريد منها أن تختزنه، لتستحضره حين المعالجة، ولتتمكّن هي، دون تدخلٍ منه، من الاقتراب من تحديد ماهيّة الشيء المراد معرفته. ولا تقتصر أهمّيّة الأسماء على العلوم التّقنيّة، بل هيَ مهمة وأساس لكلّ العلوم والمعارف دون استثناء.

لقد جعلت هذه المعضلة الباحث يتدبّر القرآن الكريم، ليجد فيه الإعجاز العظيم في قوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين × قالوا سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم × قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنيٍّ أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) (٣، البقرة ٣١-٣٣). فعُلم، بفضل الله، بعض ما تيسّر من معاني هذا الآيات الخالدات، وأثبت وجه الإعجاز العلميّ فيها المتمثّل في إشارة القرآن (رسالة الإسلام الخالدة) إلى مفتاح العلم والمعرفة في الحياة. كما قادته هذه المعضلة إلى النظر في قول الرّسول الأمين: (بعثت بجوامع الكلم) (٢، البخاري، حـ ٦٧٣١)، فرأى فيه من الإعجاز ما في الآيات السابقات حيث أن جوامع الكلم تختصر العلم اختصارًا عظيمًا وذلك يقتضي تسمية الأشياء بأسمائها الدقيقة المناسبة لها، والإفصاح عن المعنى المراد بأقلّ عدد ممكن من الألفاظ لا ينوب غيرها عنها. إنَّ المرء ليتسآءل اليوم: من الّذي علّم هذا الرّسول الكريم الأمّيّ، في الأمّة الأمّية أنَّ الأسماء هي أساس العلم مهما تعاظم –هذا العلم- وعلا، لينصّ عليها الكتاب الّذي جاء به، قبل أن تتطوّر العلوم وتنتشر المعارف في الأرض؟ ومن الّذي ميّزه، صلّى الله عليه وسلّم، على جميع النّاس بجوامع الكلم التي هي علاج ضعف علوم اليوم وتقنياته. أليس هو الله جلّ في علاه. إنَّ هذا لهو

عين الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفي الحديث الشّريف، في هذا العصر وفي كلّ عصر.

وقد استطاع الباحث، بفضل الله، أن يعضد ما رمى إليه في بحثه بشواهد من كلام العرب وشعرهم في عصور أربعة تمثّل الحياة على الأرض في وقتها، فوُجد أنَّ لفظ اسم لم يزدهر في اللّغة إلاَّ بعد نزول القرآن الكريم، على سيد الأولين والآخرين، ومن ثمّ تعليمه صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه كيف يسمون أنفسهم، وأشياءهم، وكيف يمجدون الله بأسمائه الحسنى، ويبتدئون أفعالهم باسمه جلّ في علاه. ألا يدلّ هذا الكشف العلمي على حقيقة أنّ الرّسول محمد صلى الله عليه وسلّم بعث للنّاس كافة، وإن معجزته هي من جنس ما برع فيه كلّ النّاس دون استثناء (اللّغة)؛ إذ كانت معجزات من سبقه من الأنبياء من جنس ما برع فيه قومهم فقط. لذا يجب على كلّ ذي علم، أيًّا كان مجاله المعرفي، أن يعود إلى هذين النبعين العظيمين للاستزادة منهما، والاسترشاد بهما، لتكون حياته حياة رشادٍ وفلاح ونماءٍ وعطاء. ووجب علينا نحن المسلمين، أن نعيد النّظر في تصنيف العلوم، وتعليمها لأجيالنا، وأن لا ننبهر بثقافات مهلهلة مهما بدا لنا شموخها وجبروتها؛ بل على المسلم أن يفخر بما قدّمته رسالته للعالم من علم، وما أرشدته إليه من نهجٍ معرفي، بعد أن كان في غيٍّ وضلال مبين.

المراجع

١. القرني، ظافر بن علي، وعائض بن علي القرني، ١٤١٩هـ: البيئة التعليمية وأثرها على التعريب. ندوة تعميم التعريب وتطوير الترجمة، جامعة الملك سعود، ٢-١٤١٩/٦/٣هـ (٢٢-١٩٩٨/١٢/٢٣م)، ص ٨١-٩٢.

٢. موقع الإسلام، إشراف وزارة الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، السعودية www.al-islam.com ، ١٤٢٧هـ.

٣. القرآن الكريم.

٤. القرني، ظافر بن علي، ١٤٢٧هـ: أسماء الأشياء والعلم والتّقنيّة: الإعجاز العلمي العظيم، توزيع مكتبة العبيكان، الرياض.

٥. القرني، ظافر بن علي، (٢٠٠٢م): أوجه التشابه والاختلاف وآفاق التكامل التقني والمنهجي بين المساحة التصويرية والاستشعار عن بعد. سلسلة بحوث جغرافية، الجمعية الجغرافية السعودية، المملكة العربية السعودية، عدد ٥٢، ٥٣ صفحة.

٦. Algarni, Dafer Ali (2001): Role and Importance of Natural Language in Geomatics Engineering. XVIII Surveying and Mapping Educators Conference 2001: A Spatial Odyssey. Penn State University. United states of America. July 15-19. 2001. pp. 55-65.

7. Algarni, Dafer. 2005: The Missing Resolution in Geographic Information Systems. GISs.The First National GIS Symposium in Saudi Arabia. Shawal 19-21. 1426. November 21-23. 2005. Khabar. SA.

Lillesand. T. and Kiefer. R. (2000): Remote Sensing and Image Interpretation. 4th .8
.Edition. John Wiley & Sons. New York. 724 pages

Konceny. 2005: E-Government. E-Commerce and Internet. A lecture .9
presented at College of Eng. Civil Engineering. King Saud University (Personal
.(Communication

Jurvetson. Steve. 2005. An Interview. New York Times. (www.nytimes.com). (Thu. .10
.(03 Feb 2005

١١. ورشة التقنيات متناهيةالصّغر (النّانو)، مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتّقنية بالتّعاون مع جامعتي متشجان آن آربر وإيلينوي الأمريكيتين، ٢٩-٣٠ /١٤٢٦/١٢هـ، الرياض.

١٢. ابن قتيبة، أبي محمد عبدالله بن مسلم: أدب الكاتب. تحقيق محمد طعمة الحلبي (١٤٢٢هـ). دار المعرفة، بيروت، الطَّبعة الثَّانية، ٤٠٢ صفحة.

١٣. صفوت، أحمد زكي: جمهرة خطب العرب في عصور العربيّة الزَّاهرة. ثلاثة أجزاء، المكتبة العلميّة، بيروت، ١٣٩٠ صفحة.

١٤. ديوان عنترة بن شدّاد. تحقيق دار صادر ، بيروت، ١٤٢٤هـ ، ٢٥٤ صفحة.

١٥. ديوان النَّابغة الذُبياني، تحقيق حمدو طمَّاس، ١٤٢٤هـ، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، ١٣١ صفحة.

١٦. ديوان عبيد بن الأبرص . دار صادر ، بيروت، ١٥٥ صفحة.

١٧. المحلّي، جلال الدِّين، وجلال الدَّين السّيوطي: تفسير الجلالين، نراجعة مروان سوار، دار المعرفة، بيروت.

١٨. ابن سيده، أبي الحسن علي بن إسماعيل: المخصَّص. تحقيق دار إحياء التُّراث (١٤١٧هـ)، الطبعة الأولى، خمسة أجزاء.

١٩. جلال الدين بن عبدالرَّحمن السّيوطي: المزهر في علوم اللُّغة وأنواعها. تحقيق محمد أبو الفضل، ومحمد المولى، وعلي البجاوي (١٤٢٥هـ)، المكتبة العصريَّة، بيروت.

٢٠. ديوان الأعشى الكبير، شرح حنَّا نصر الحتي، ١٤١٢هـ، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، ٤٠٥ صفحة.

٢١. ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق طمَّاس حمدو، ١٤٢٥هـ، الطبعة الأولى. دار المعرفة، بيروت، ١٤٤ صفحة.

٢٢. ديوان حسَّان بن ثابت، ١٤٠٣هـ. دار بيروت للطِّباعة والنَّشر، ٢٦٩ صفخة.

٢٣. الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر: البيان والتَّبيين. تحقيق درويش جويدي (١٤٢٢). المكتبة العصريّة، بيروت، ٦٤٧ صفحة.

٢٤. ديوان الأخطل، تحقيق راجي الأسمر، ١٤٢٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ٥٤١ صفحة.

٢٥. ديوان الفرزدق، تحقيق مجيد طراد، ١٤٢٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، جزأن (٨٨٤ صفحة).

٢٦. ديوان جرير، تحقيق حمدو طمَّاس، ١٤٢٤هـ، دار المعرفة، بيروت، ٤٧٠ صفحة.

٢٧. الزَّمخشري، جار الله محمود بن عمر. أساس البلاغة، تحقيق مزيد نعيم، وشوقي المعرِّي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، مكتبة لبنان، ١٤٢٤ صفحة.

٢٨. ديوان أبي تمَّام، تحقيق الخطيب التبريزي، شرح راجي الأسمر، ١٤٢٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، جزأن (١٠٢٢ صفحة).

٢٩. ديوان البحتري، ١٤٠٨هـ: دار بيروت للطِّباعة والنَّشر، بيروت، الجزء الأول (٤٥٩ صفحة)، الجزء الثَّاني (٤٤٣ صفحة).
٣٠. ديوان المتنبّي، تحقيق عبدالرّحمن المصطاوي، ١٤٢٤هـ، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، ٤٤٠ صفحة.
٣١. الفخر الرّازي، التّفسير الكبير، تحقيق مكتب دار إحياء التراُّث العربي، الطّبعة الرّابعة، ١٤٢٢هـ، بيروت.
٣٢. الألوسي، أبي الفضل، شهاب الدّين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تحقيق السّيد محمد السّيد وسيد إبراهيم عمران، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.

www.eajaz.org